# ٢ - محاكم التفتيش

## وكيف بدأ ديوانه التفتيش

للدكتور على مظهر

### ١ — سجون التفتيش فى فرنسا

اجتمع رجال الكنيسة الكاثوليكية فى مدينة طلوشة ( تولوز ) سنة ١٣٢٩ م - ٧٢٩هـ - لأول مرة أيام البابا جريجوريوس التاسع اجتماعاً تمهيدياً لتقرير إنشاء محكمة يقدم إليها كل من اتهم فى دينه الكاثوليكى ، وكل من كان على دين أو معتقد غير ما يعتقد جماعة الكاثوليك أمثال اليهود والبروتستانت وجماعة المفكرين والأحرار والمسلمين الذين كانوا بأوروبا أيامئذ، ايام كانوا بأسبانيا والبرتقال ، وكل من يتهم بالإلحاد والزندقة فى مسيحيته الكاثوليكية.

ولكن البابا المذكور لم يقرر إنشاء الديوان بطريقة رسمية والعمل بما رآه المجتمعون إلا فى سنة ١٣٣٣م ٧٣٣-٧٣٤هـ - فصدرت الأوامر إلى كل الكنائس الكاثوليكية بتعيين كاهن خاص بالبحث عمن أشرنا إليهم آنفاً وتقديمهم لمحكمة بابوية خاصة . وخول لكاهن التفتيش الخاص أن يستعين بمن يراه لازماً لمعونته من الجواسيس ، وكان يطلق على تلك المحكمة الخاصة البابوية « الديوان المقدس » أو « التفتيش المقدس » . ولم يكن يعرف أولئك الجواسيس، بل أخفيت أسماؤهم عن الناس ووعدوا بغفران خطاياهم، وأحل لهم ارتكاب الجرائم مهما يكن نوعها ومهما تعقب من عظائم الأمور. فكان المتهم الذى يحضر أمام المحكمة يسأل ويقر بما يعتقده صراحة عن الكنيسة وعن الدين المسيحى ، فإذا أبى الإذعان دفع به إلى معذبين يسومونه العذاب الأليم .

وظل ديوان التفتيش يعمل بفرنسا ، تارة جهراً وتارة فى طى الخفاء، تبعاً لآراء الملوك الذين عضدوه، حتى كانت الثورة الفرنسية فتقرر إلغاؤه، وانتقم الشعب من رجاله وهرب بعضهم إلى أسبانيا والبرتقال لينضموا إلى رصفائهم هناك .

ومع أن ذلك الديوان وتلك المحاكم كانت معروفة فى فرنسا وإيطاليا وفى بلاد أخرى من أوروبا ، إلا أنها لم تعمل بها مثل ما عملت بأسبانيا والبرتقال ، ولم تمارس من الفظائع والأعمال البربرية الوحشية مثل ما مارست بجزيرة إيبريا ؛ حتى قدر بعضهم عدد ضحايا التفتيش بما لا يقل عن تسعة آلاف ألف من الناس أثناء المدة المحصورة بين سنة ١٣٣٣ وسنة ١٨٣٥ م ، حيث ألغى

من أسبانيا بعد أن لطخت كل أرجائها بالدم المسفوك فى سبيل نصرة الكثلكة والقضاء على مخالفيها .

## ٢ — سجون التفتيش فى أسبانيا

يذكر بعض عارفى أسبانيا ، أنه يوجد إلى يومنا هذا فى عدة مدن بأسبانيا أبنية قديمة غريبة فى هندستها وشكلها ، تباين ما حولها كل المباينة ، كأنها مجموعة من قصور وأديرة وسجون معاً ، جدرانها ضخمة ونوافذها قد اعترضها حديد ضخم غليظ قد تصدأ .

وإذا ولجت إحدى هذه الأبنية من الخلف رأيتها مؤلفة من عدة غرف صغيرة يوصل إليها بممر ضيق . ويصل النور إليها من ( منور ) صغير فى سقف كل غرفة ، وقد أحكم سد المنور بثلاثة أدوار من غليظ الحديد عليها .

ويرى الزائر فى أرض الممر فتحات صغيرة كل فتحة تبعد عن الأخرى نحو متر ونصف متر ، وقد أحكم سدها بالحديد الغليظ . وقد خصصت هذه الفتحات للمسجونين فى الغرف السفلى تحت الممر ، أى الغرف التى بالدور الأسفل ، ومن تحته طبقات أخرى عديدة تحت الأرض ، وهى سجون سرية لا يهتدى إليها إلا رجال المحكمة والسجانون فحسب .

ومهما يكن النهار رائعاً والشمس طالعة مشرقة ، فإن الزائر لا يبصر شيئاً فى تلك الممرات والغرف لظلمة المكان ، بل يجب أن يصطحب نوراً يضىء له الطريق . أما الغرف فكانت تطلى بالشحم ، ويظهر أن ذلك كان لمنع السجين من تسلق الجدران والهرب أو عمل أى أثر فى الحائط للنجاة . ثم يرى بعض آلات التعذيب فى كل مكان مثل أسواط بها قطع من الحديد الشائك لجلد المسجونين وإهراء لحومهم من عظامهم ذى ( كلاليب ) لانتزاع اللحم من العظم ، وقدور من الحديد لعلها كانت لصهر الرصاص [illegible] صبه على المعذبين أو لغلى الماء أو الزيت لمثل ذلك الغرض ، ويوجد إلى جانب ذلك مستودع للفحم لا يزال كثير منه إلى الآن بقربها .

ومع أن تلك السجون كانت رطبة ، فقد كان الماء يصب فيها على الدوام لكى لا تتشرب الأرض الدماء السائلة من أبدان المعذبين وتبقى مشبعة بها .

ذلك مثال من أبنية التعذيب التى كانت تدعى بدور ( الديوان المقدس ) يتولى الرعب والخوف كل من يمر أمامها لمجرد تصوره أنه سيدخلها يوماً ما ، فكان يتلفت يميناً وشمالا وإلى خلف وهو لا يصدق أنه سيجوزها ويتخلص من منظرها المخيف المرعب .

## ٣ — سجون التفتيش فى البرتقال

كانت محكمة ديوان التفتيش العامة بالبرتقال ، بمدينة لاشبونة ، فى مكان الملعب الوطنى اليوم ، وقد شغلت أبنيتها كل الحى ، حتى إن أبوابها الخلفية كانت تصل إلى الطريق المؤدى لدير القديس أنطونيو .

وقد بنيت هذه الدار بطريقة تؤدى الغرض من إنشائها ، فكانت ذات غرف عديدة وممرات مظلمة تحت الأرض ، وفى وسطها أربع قاعات كبيرة فسيحة ، كل منها أربعون متراً مربعاً ، ويحيط بكل قاعة ثلاثة أروقة ، مؤلفة من ثلاثة أدوار ، وفى جدران تلك الأروقة أبواب صغيرة ، الواحد جوار الآخر كانت أبواب السجون المعدة للمتهمين والمعذبين.

وفى الممر الأسفل الذى يحيط بكل قاعة ، سجون صغيرة وضيقة ، حالكة ومظلمة جداً ، أعدت لمن كانوا أشد كفراً وضلالا من غيرهم .

وكانت الأروقة الثلاثة وما بها من سجون تحيط بكل قاعة من قاعات العذاب ، عبارة عن ثلاث درجات للتعذيب ، تبعاً لذنب المتهم ، وما يحكم به عليه من أنواع العقاب .

فمن كانت ذنوبهم خفيفة سجنوا بالسجون العليا وهؤلاء يصلهم فيها قليل من النور ، وكان جلهم ممن قبض عليهم للبحث عن شئونهم والتثبت من أمورهم ، لأن الديوان ما كان ليثق كثيراً بأى تهمة تصله مالم تكن عن أفراده وعيونه الذين عينهم ، أما من وشى بهم من غير الجواسيس فكانوا يزجون فى تلك السجون العليا . وكان الديوان يسعى للقبض على أعدائه الذين يرغب فى التخلص منهم دفعة واحدة ليقتلهم . وأمثال أولئك المسجونين سجناً احتياطياً كانوا قلائل نادرين جداً . وقل من قبضت عليه محكمة ديوان التفتيش وأدخلته سجونها وخرج حياً منه ؛ لأن أولئك المفتشين كانوا يقضون على كل مخالف لدينهم وكنيستهم بالموت ، أما من كان معهم فله أن يفعل ما يشاء دون عقاب عليه .

وخصصت الطبقة الوسطى من تلك السجون للنساء اللواتى كان رجال ديوان التفتيش يترددون عليهن من حين لآخر . وكثيراً ما كان يتم ذلك للعبث بعفافهن فى تلك الدار الموحشة.

وكان لأبواب تلك السجون الفردية عوارض غليظة من الحديد ، يظل بها السجين بعيداً عن الباب بطريقة أعدت لذلك ، لئلا يحاول الكسر أو الفض . ومع فرض كل المستحيلات ، وتمكن سجين من أن يفتح الباب ، فإنه يرى أمامه سوراً عالياً طوله خمسة وعشرون متراً يفصله عن السجن خندق عميق عرضه يتراوح بين الاربعة أمتار والخمسة ، يطوف به الحراس ليل نهار .

ولا يرى السجين شيئا مما فى الخارج ولا يدرى مابه وتدخل إليه أشعة من نور ضئيل وقليل من الهواء لئلا يختنق من فتحة صغيرة فى أعلى الباب . وكل غرفة لاتزيد على مترين طولا ومثلها عرضاً ، ولا يمكن أن يتصور الانسان مابها من ظلام خصوصاً سجون الطابق الأسفل ، ولاسيما إذا لاحظت أن الممرات التى يستمد منها السجين النور مظلمة ظلاما يحتاج السائر فيها إلى مصباح إذا كانت الشمس فى رابعة النهار .

وكان ذكر تلك السجون يلقى الرعب فى قلوب أشجع الشجعان . وكان يرى المتأمل الى جانب تلك السجون والطابق المتصلة بقاعات ديوان التفتيش الفسيحة أبهية فيها رفاهية ونعيم

مقيم، فيها أفخر الرياش يتقلب عليها رجال المحكمة المقدسة فى الدمقس وعلى الحرير، وبها المقاعد الوثيرة المريحة، يأكلون مالذ وطاب ويحتسون الخمور والأنبذة، وإلى جوارهم أنين وعذاب أليم.

## ٤ — السجين فى مطبقه

لم يكن عند السجين سوى قطعة من الخشب طولها متران وعرضها متر ونصف المتر تكون سريره على الأرض، ويعطى له غطاءان من الخيش يفترش واحداً ويغطيه الآخر، وتعطى له قرميدة أو قطعة من البلاط تكون وسادة له ويترك له، إناءان يحوى أحدهما ماء للشراب ويحفظ بالثانى بوله وبرازه، ويترك له إناء آخر للزيت يضع منه فى المصباح الذى يلزم باضاءته ليل نهار. وكان ذلك الأثاث لمن كانوا فى الحبس الاحتياطى وذنبهم قليلا؛ أما من عداهم فلا.

وسبب إلزامه باضاءة المصباح ليل نهار، لكى لايميز الليل من النهار. وكان يستعاض فى سجون أسبانيا عن المصابيح الزيتية بشموع، ليذكر السجين بأنه أصبح فى عداد الأموات الذين توقد لهم فى غرفهم الشموع؛ لشدة النكاية بهم وهم أحياء؛ ولازدياد الرهبة فى قلوبهم فيلتزم الهدوء والسكون. ولم يكن يسمح للسجين برفع صوته حتى لو كان يصلى، بل يجب أن يلتزم الصمت التام؛ والويل كل الويل لمن خالف ذلك أقل مخالفة البتة. وكان يفرض لكل سجين منهم قرش واحد فى اليوم، فاذا ما انتهى الشهر طاف بالسجناء السجان يجمع منهم تلك النقود، ويسأل كل واحد منهم ماذا يرغب أن يفعل بها فى شهره القادم وما يريد من مأكل مثلا؛ وإليك إجابته على قبيل المثال:

(١) تسعة قروش ليقدم له كل يوم صحن مرق لحم ساخن (٢) ثمانية قروش ثمن خبز
(٣) أربعة قروش ثمن جبن (٤) قرشان ثمن فاكهة (٥) أربعة قروش ثمن نبيذ.

والباقى وقدره ثلاثة قروش لغسل ثيابه، وكان يصحب السجان كاتب يدون مطالب السجناء كل على حدة، فيقدم للسجين كل ما أملاه على الكاتب وما أبداه من رغبات مع تقديمها تماما فى مواعيد مضبوطة. أما إذا جاء أمر من الديوان بإلغاء شىء منها أو بإلغائها كلها، فلا يعطى شىء ما؛ وإذا ماقرر المجلس شيئاً للسجين من الأطعمة فيجب على الكاتب والسجان أن ينفذوا ذلك بكل دقة، وإلا نالهما من العقاب الصارم مايجعله عبرة لغيره؛ لأنه لم ينفذ أوامر المحكمة المقدسة، وكان رجالها يعدون أنفسهم نواب الله فى أرضه.

أما من كان يستزيد فى المقرر من طعام وخمر، وكان جلهم من الغرباء، فكان يجب عليهم أن يتقدموا لرجال الديوان ويشافهوهم بطلباتهم وحاجاتهم فيستمع لهم رجال الديوان وينصتون وتجاب الطلبات غالباً مالم يكن منها مايضر بالصحة، وكانوا يقصدون بذلك أن يطيلوا آجالهم لتنفذ فيهم مشيئة المحكمة المقدسة، ولايدعونهم يموتون من مرض تسبب عن طعام أو شراب.

وكان محظوراً على السجين أن يكلم أحداً أو أن يرفع صوته سواء أكان من الآلام أم للصلاة

أو لاستغفار الله أو للترتيل أو للغناء أو لأى سبب آخر، فكأنما قد انقطعت صلته بالعالم بأسره انقطاعاً تاماً ، ومن خالف تلك الأوامر عرض نفسه للعذاب والقصاص الأليم، وكان حراس السجون ورجال النظام فى تلك السجون المظلمة ينقلون لرجال الديوان المقدس كل ما يحدث فلا تخفى عليهم خافية . وكانت الممرات التى بها أبواب السجون ملأى بالسجانين يستمعون لمعاشر اليائسين فى المطابق ويأمرونهم ألا يرتكبوا ما يحرمه رجال التفتيش عليهم مرة ، فاذا عاد وارتكب مخالفة ( على حد تعبيرهم ) صدر الأمر بإرسال السجين إلى حضرة رجال المحكمة، ويخرج المسكين أمام بقية المسجونين، وإذا مثل أمام المحكمة أصدرت حكمها بسرعة بتأديبه وتعذيبه، فيرسل إلى قاعة التعذيب فيصيح من شدة الآلام التى يقاسيها حينئذ ويصرخ فاذا ما سمعه رفقاؤه فى السن ملئوا رعباً واشتد بهم الحزن والغم .

وكان محظوراً على السجين الإتيان بحركة أو الكلام وهو فى سجنه منعاياتا، حتى إن أحد المسجونين أصيب بالسل بعد أن قضى زمنا طويلا فى عذابه وسجنه الرطب الموحش المظلم، فأخذ يسعل رغم أنفه، فأنذروه بألا يعود إلى السعال بعد، فأجاب وهو خاشع ذليل أن هذا رغم إرادته، وأنه لا يمكنه الانقطاع عن السعال. واشتد عليه المرض فأكثر من السعال فاقتيد إلى المحاكمة فقضت فيه بحكمها العسوف ، وكان يقضى بضربه بالعصى فضرب حتى سقط بين أيدى معذبيه القساة واستراح من تعاسته وحياة السجون والعذاب . والذى روى هذا شاهد عيان اتهم بأنه من أحرار البنائين (الماسون )، وسجن عام ١٧٤٣ - م سنة ١١٥٦ هـ .

## ٥ — ديوان التفتيش فى بلاد البرتقال

بدأت محاكم التفتيش تباشر فظائعها ببلاد البرتقال حوالى سنة ١٥٤٧ م ( سنة ٩٥٤ هـ ) أيام الملك جوان الثالث، أعنى عند ما ابتدأت الأسرة المالكة هناك فى الانحطاط، على أنا نرجو ألا يفهم من هذا أنه لم يكن هناك اضطهادات دينية عديدة وقعت على الناس فى بلاد البرتقال وبلاد أسبانيا قبل ذاك التاريخ ، فكل من درس تاريخ تلك العصور المظلمة يعلم شدة غلو الملك فرديناند فى تعصبه للمذهب الكاثوليكى والذى كان يقول كلمته الشهيرة وهى :

« يجب أن تكون أسبانيا إما كاثوليكية أو إسلامية »، ويعنى بذلك أنه يجب أن تدين البلاد بدين واحد وهو الكاثوليكى طبعاً ، ويجب ألا تدين بدين آخر .

أما فى بلاد البرتقال فقد أدخل الملك جوان الثالث ذلك الديوان الخاص المعروف بقسوته وعتوه فى محاربة من خالفه ، ونعنى بذلك الديوان ديوان التفتيش أو محكمة التفتيش ، وكان ذلك الملك يأتى إلى ساحة المدينة التى كان يحرق بها من حكمت عليهم محاكم التفتيش بالحرق والعذاب ، وكان يصحب الملك الملكة والوزراء ورجال الدولة وكبار رجال الدين فيتبوءون مجالسهم فى مكان مرتفع مزين أحسن زينة ليتمتعوا النفس بمناظر التعذيب وحرق الجثث البشرية الحية .